البطالة وعلاقتها بالهجرة غير الشرعية للشباب الجزائري

أ.رتيبة طايبي
أ.مساعدة بقسم علم الإجتماع
جامعة البليدة

ملخص:

لقد تناولنا في هذا المقال طرح إشكالية محورية تتعلق بـ "**البطالة وعلاقتها بالهجرة غير الشرعية للشباب الجزائري**"، ذلك أن مشكلة البطالة هي من أخطر المشكلات التي تواجه المجتمع الجزائري والتي تمس أكثر الشباب، وتعد البطالة بمثابة السبب الرئيسي لبروز الهجرة غير الشرعية للشباب، وبالتعبير المتداول "**الحرقة**"، وقد عرفت هذه الظاهرة إنتشارا واسعا بين أوساط الشباب الجزائري في السنوات الأخيرة.

وعليه، فإن الشباب البطال الذي لا يستطيع إيجاد فرصة عمل في موطنه الأصلي يكون بذلك مجبرا على مواجهة الأزمات الإجتماعية والإقتصادية التي يعيشها ورفع تحديات المستقبل، وهو ما يؤدي به إلى الإندفاع –بقوة إرادته– نحو الهجرة غير الشرعية وخوضه غمار هذه التجربة الإنتحارية، والمخاطرة بحياته لتجسيد أحلامه المكبوتة في الحصول على عمل يضمن له حياة أفضل وبناء مستقبله.

***R*ésumé** :

Le présent article aborde la problématique cruciale du « **Chômage et sa Relation avec l'Emigration Clandestine des Jeunes Algériens** ». En effet le chômage est un problème délicat que rencontre la société Algérienne, et qui touche beaucoup plus la jeunesse. Le chômage constitue la principale cause de l'émigration clandestine des jeunes, appelée « **EL HARGA** », ce phénomène s'est amplement propagé dans les milieux des jeunes Algériens durant ces dernières années.

De ce fait, les jeunes chômeurs qui n'arrivent pas à trouver d'opportunité d'emploi dans leurs pays d'origine, doivent affronter les

crises socio-économiques dans les quelles ils vivent et relever les défies de l'avenir. C'est ainsi qu'ils se trouvent stimulés et obligés de s'orienter vers l'émigration clandestine, et tenter une expérience aussi suicidaire en risquant leurs vies, dans le but de réaliser leurs rêves, les plus refoulés, de se procurer un emploi leur assurant une meilleure vie et avoir de l'avenir.

إعتمادا على منظور إجتماعي تاريخي يمكن القول بأن "المسألة الشبابية" (**Question Juvénile**) في مختلف أبعادها ودلالاتها، قضية مرتبطة أساسا بالتحولات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والثقافية التي عرفتها المجتمعات المعاصرة، لقد كانت المجتمعات التقليدية – بنمط تربيتها العفوية وغير الممأسسة في أغلبها والمتمحورة أساسا حول الأسرة كمؤسسة إجتماعية مركزية- لا تجد صعوبات كبيرة في تأهيل الشباب وإحتوائهم وإدماجهم في النسق الإجتماعي العام عبر المؤسسة الزواجية، والإنخراط المبكر في العمل الإنتاجي وتقلد بعض المسؤوليات الحياتية، أما المجتمعات المعاصرة فنظرا لتعقد بنياتها نتيجة ما عرفته من تطور حضاري كبير وتراكم في المعارف والخبرات والتجارب فقد إرتفعت فيها درجة التخصص الوظيفي، وكان من مستتبعات هذا الوضع النمو المتزايد للمجتمع المدني وظهور مؤسسات إجتماعية جديدة، وفي هذا السياق المجتمعي الجديد أصبح الإهتمام بالشباب وبشؤون تعليمه وتربيته وتكوينه وتأهيله وتشغيله للإندماج الإجتماعي مسألة حاسمة.[1]

فمن الناحية الإقتصادية وفي إطار التوجهات الفلسفية العامة لمجتمعات الوفرة والربحية والإستهلاك، لم يعد ينظر إلى الشباب كركام بشري يقع إستدماجه بشكل عفوي في دورة إقتصادية بسيطة، كما كان الأمر في المجتمعات التقليدية، بل أصبح ينظر إليه كرأسمال بشري هام يجب إستثماره بشكل عقلاني مخطط تلافيا لأي هدر أو ضياع مجاني[2]، وفق هذا التوجه أضحت مرحلة الشباب بالذات بارزة الأهمية في المجتمعات الحديثة لإرتباطها بالإنتاج، لدرجة أنها تمثل في ذاتها قيمة إنتاجية في هذه المجتمعات بما يعني أن قيمة الشباب تتمثل عامة في أنه خزان طاقة يتولد عنها إنتاج خصب ومتنوع في جميع المجالات، وهو ما يجعل بذلك مشاكله تلقي بظلها على كافة التخطيطات.[3]

بعد هذا التقديم وقبل الإسترسال في التحليل يتعين علينا التوقف عند **تعريف الشباب** وفقا للشكل التالي:

ويرد في قاموس محيط المحيط للمعلم "بطرس البستاني" والمبني أصلا على قاموس لسان العرب في تعريف الشباب أن: شب النار أوقدها، وشب الشيء إرتفع ونما، وشب الغلام يشب شبابا صار فتيا، وقيل الشباب لغة من يكون سنه بين الثلاثين إلى الأربعين، وشرعا من يقع سنه بين 15 وثلاثين سنة، المعنى اللغوي للشباب هو إذا

البروز والنماء وتوقد الإمكانات على إختلافها، وهو معنى أقرب ما يكون من حيث قدراته التعبيرية عن طاقات الشباب وحيويته وخروجه إلى الدنيا.

وتجدر الإشارة إلى التعريف القاموسي الأجنبي (إنجليزي، فرنسي) للشباب قاموس "وبستر" على سبيل المثال ومثله قاموس "لاروس" الفرنسي، إنهما يقولان بصفة الحداثة (**Jeune, Young**) وبالإسم منها (**Jeunesse, Youth**)، ويذكر "وبستر" أن هذه الصفة تدل على الفترة من الحياة التي يكون فيها الإنسان حدثا، أو الفترة ما بين الطفولة والرشد أو بين المراهقة والنضج، وأن تكون حدثا هو أن تكون غير ناضج.

أما قاموس "لاروس" الذي يذهب نفس المذهب فيذكر أن كلمة حداثة (**Jeunesse**) تعني بدايات الشيء أو أوله، وهو ما أخذه عنه المعجم الوسيط تحديدا حيث يذكر أن الشباب هو إدراك سن البلوغ إلى سن الرجولة، والشباب هو الحداثة وشباب الشيء هو أوله.[4]

كثيرة هي المقولات والأحكام التي تقطع بأهمية الشباب في أي مجتمع بإعتباره نصف الحاضر وكل المستقبل، ولكونه بالتالي الثروة البشرية التي تتمحور حولها الخطط والمشروعات وتقام من أجلها وبها كل عمليات التطور والتنمية[5].

ويبقى الشباب هو الطاقة والقوة، الحماس والسواعد الفتية، هو الفكر المتجدد والإبداع، التحديث والإبتكار، هو كذلك الجرأة والشجاعة، المغامرة والمخاطرة، والشباب مطالب بأن يعمل بجد وإجتهاد وأن يجدد ويبتكر بل يخاطر يغامر ويقتحم لكي يحقق ذاته ومستقبله.[6]

وقضية الشباب هي جزء من قضية المجتمع تتأثر بمشاكل المجتمع وتؤثر فيه إيجابا أو سلبا، أي أن الشباب قد يسهم في حل مشاكل المجتمع إذا نجحت الحكومات في حل مشاكله وهيأت له فرص العمل والمشاركة في صنع القرار، أو قد يتسبب الشباب في زيادة مشاكل وأعباء المجتمع لو تجاهلنا إشباع حاجاته وآماله المشروعة في حياة أفضل[7]، وبذلك نجد أن الشباب شريحة عمرية لها بنيتها البيولوجية والسيكولوجية الخاصة التي تتضمن دوافع وحاجات محددة لها موقعها في بناء المجتمع، وبالنظر إلى الشرائح العمرية الأخرى فهي شريحة رأسية تقطع البناء الإجتماعي بطبقاته الإجتماعية وتجمعاته المتباينة[8]، وبإعتبار الشباب طاقة متفتحة ومنطلقة يكون معرضا للصراع ما بين حوافز ودوافع ناجمة عن حاجات ورغبات، وما بين موانع وكوابح ناتجة عن الظروف الإقتصادية والإجتماعية المتأزمة السائدة.[9]

وإستنادا إلى ذلك تأتي أهمية إشباع الحاجات في المقام الأول لدى العلماء في أنها تؤثر على تحقيق التكيف النفسي للفرد الذي يؤدي بدوره إلى التكيف الإجتماعي، فإذا نجح الشباب في إشباع حاجاته وتحقيق أغراضه أصبح سويا نفسيا وإجتماعيا منتجا إيجابيا في مجتمعه، وإما أن يفشل في ذلك لأسباب ترجع إلى الظروف الإجتماعية الإقتصادية المحيطة به، وهنا تكمن خطورة الأمر حيث يخلف الفشل في إشباع حاجاته المتنوعة الصراع النفسي لديه، وتبدأ تظهر مظاهره على سلوكه وهي أعراض سوء التكيف النفسي والإجتماعي التي تفتح الأبواب

للإنحراف، فما من إنحراف في سلوك الشباب ولا مشكلة من مشاكله إلا وتكمن وراءه حاجة محددة لم تحقق أو دافع معين لم يشبع.[10]

وبهذا، تعتبر الحاجة للعمل حاجة ملحة لدى الشباب في المجموعة البشرية فهي تعد من الحاجات الجوهرية التي تتطلب الإشباع، وهي مرتبطة أكثر من غيرها بالحاجة للشعور بالإنتماء وتحقيق الذات، إذ أنها ترتبط بالحاجة إلى تحمل المسؤولية الإجتماعية وبما يرتبط بها من الشعور بالإنتاجية والمردودية، ومن هذا المنطلق فإن أهم ما تتجلى به أزمات الشباب هو الشعور باللاّجدوى الإجتماعية، والتي تترجم إلى الشعور باللاّعضوية في الجماعة وبالعجز عن القيام بدور وظيفي إنتاجي ومهني[11]، يشعره – الشباب- بذاته وبقيمته وبأنه عضو قادر على العمل والإنتاج والعطاء في النسق الإجتماعي العام الذي هو عضو فيه.

ولا بأس في أن نوضح ما **مفهوم مشكلة البطالة** بإعتبارها في ذلك من أهم المشكلات التي تواجه شبابنا في الوقت الحاضر التي يعجز بقدراته وإمكاناته عن مواجهتها، وتشكل بذلك مشكلة البطالة تحديا خطيرا من تحديات التنمية إذ يؤدي شيوعها إلى تحول قطاع كبير من أفراد المجتمع إلى قطاع عاطل غير منتج، وهو ما يعلل الفجوة التي تفصل بين الدول المتقدمة الصناعية والدول النامية، حيث ترجع قوة الدول المتقدمة إقتصاديا إلى القدرة الإنتاجية الهائلة والمرتفعة للقوى العاملة فيها وإستثمارها الرشيد في عمليات الإنتاج.[12]

إن ظاهرة البطالة عرفها العالم منذ القديم بإعتبارها ظاهرة إجتماعية قديمة تفاوتت حدتها وإختلفت من دولة إلى أخرى، إلا أنها لم تكن تعرف بهذا الإسم الذي تعرف به الآن فهي مشتقة من الكلمة اللاّتنية « **CAUMARE** » والتي تعني الإستراحة عند الحرارة، والمشتقة في الأصل من الكلمة اليونانية « **KAUMA** » والتي تعني الحرارة المحرقة[13]، وقد بدأ الإحساس بخطورتها وثقلها كمشكلة خطيرة تهدد الكيان الإجتماعي والإقتصادي والسياسي، مع ظهور الثورة الصناعية وما صاحبها من تغيرات جذرية في البنية الإجتماعية والإقتصادية حيث إنعكست آثارها بالدرجة الأولى على الفئة العمالية.

وإن ألقينا لمحة خاطفة على أهم التعاريف الواردة حول البطالة نجد أن هناك من الباحثين من ذهب إلى تعريف البطالة على أنها: "التوقف اللاّإرادي عن العمل تبعا لفقدان الشغل".[14]

هذا، ويعد الشباب بمثابة القوة الرئيسية في أي مجتمع يقع عليه مبدأ المشاركة في التنمية الإجتماعية والإقتصادية، وذلك عبر توفير له فرص العمل وتعزيز وتأكيد دوره الوظيفي وقدراته وإمكاناته في تبني العديد من المشروعات الصغيرة التي أصبح لها دورا بارزا في محاربة البطالة ومن ثم تنمية المجتمع[15]، ذلك أن الدور الشبابي يمثل أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع الذي يعد بهيئاته ومنظماته المختلفة مسؤولا إلى حد كبير عن دعم هذه الأدوار، والدور الوظيفي هو ببساطة الجانب السلوكي للمكانة التي يشغلها الشباب ضمن النسق الإجتماعي العام.[16]

وبناء عليه، فإن العمل يشكل حقيقة ضرب من ضروب العبادة والسعي وراء الرزق الحلال وهو واجب وطني أسري وشخصي، وهو علاج نفسي لحالة الملل والقلق والتوتر وفيه يجد الشباب نفسه ويشعر بقيمة وإحترام الذات وإكتساب الثقة بها، فالعمل هو كذلك مدرسة الحياة التي تعلم الشباب أسرار الحياة وخباياها وملابساتها فتزداد رجولته ووطنيته، ذلك لأن فيه الشعور بالمسؤولية وبالواجب والإلتزام والضبط، وفيه إشباع لحاجات الشباب النفسية الإجتماعية والمادية وغيرها.[17]

تعاني جل إقتصاديات العالم من مشكلة البطالة التي باتت تهدد تماسك وإستقرار المجتمعات –بخاصة في الدول النامية– لما ينتج عنها من آثار سلبية، فما زاد الأزمة الإقتصادية إستفحالا في الدول النامية إتساع هوة الإختلالات الهيكلية لإقتصادياتها، التي إستدعت الشروع في سلسلة من الإصلاحات غالبا ما تفرضها مؤسسات التمويل الدولية قصد إنعاش إقتصادياتها من جديد، في إطار سياسة إنكماشية تركز على إدارة الطلب الكلي وترشيد الإنفاق العام، ولعل من بين الأسباب الموضوعية ذات العلاقة بإرتفاع نسبة البطالة بالجزائر تبنيها لبرنامج التعديل الهيكلي الذي بموجبه تعمل على تطبيق عملية الخوصصة بمختلف أشكالها، حيث تنازلت الدولة عن المؤسسات العمومية لفائدة القطاع الخاص في إطار تعميق الإصلاحات الإقتصادية التي شرعت فيها منذ سنوات، ومن النتائج التي تنجر عادة عن عملية الخوصصة والتعديل الهيكلي تسريح اليد العاملة، وهو ما يزيد من مستوى البطالة ويجعلها أكثر تعقيدا.

أضف إلى ذلك أن معدل النمو الإقتصادي في الجزائر خلال العشرية المنتهية في 2004 لم يتجاوز 3% فقط خارج قطاع المحروقات فضلا عن تراجع النمو الإقتصادي في مجموعه، بينما نجد الطلب على العمل في تزايد مستمر مقابل هشاشة التوازنات الإقتصادية الكلية وضآلة الإستثمارات الداخلية والخارجية....الخ.[18]

يمكن النظر إلى المشكلات المتعلقة بالعمل وبخاصة مشكلة البطالة من خلال الإتجاهات الوظيفية على أنها مشكلات ناتجة عن خلل في التنظيم الإجتماعي نتيجة التغيرات الإجتماعية والتكنولوجية السريعة، وبالتطبيق ذلك على مشكلة البطالة يؤكد الإتجاه الوظيفي أنه تحت ظروف مثالية يمكن للمكونات المختلفة للإقتصاد أن تكون في حالة توازن[19]، ومن ثم يرى أنصار هذا الإتجاه الوظيفي أن المشكلات الإجتماعية والسلوكيات غير السوية لا ترتبط بجوهر التنمية، وإنما ترتبط بالظواهر التي ترافق وتنتج عن العمليات التنموية وما ينتج عنها من عدم التوازن بين شقي التنمية الإجتماعية والإقتصادية.[20]

وغالبا ما تؤدي البطالة إلى العزلة ومن ثم تضعف القوى الإجتماعية وتتضاءل قدرة العاطل عن العمل على تحقيق التضامن مع المجتمع الذي يعيش فيه، ويترتب على ذلك ظهور حالة الأنومي (**Anomie**) التي تفقده الإلتزام بالمعايير والقيم السائدة أو ما يطلق عليها "روبرت ميرتون" اللاّمعيارية الإجتماعية، ويتضح مما سبق أن هذه النظرية تركز على التوازن والتكامل والإستقرار داخل النظام الإجتماعي العام، وأن أي مشكلة ما هي إلا عبارة عن سلوكيات غير سوية وبمثابة مرض عرضي يصيب النسق كما هو الحال بالنسبة لمشكلة البطالة.[21]

تعتبر البطالة من العوامل الإقتصادية التي تدفع بشبابنا إما إلى التطرف أو الإنحراف، فهي تصيب الشباب باليأس وتجعله يشعر بالعجز المادي في مواجهة تحدي الإستهلاك الذي هو سمة العصر، وبالتالي القلق على مستقبله الإقتصادي وعلى إمكانية الإعتماد على نفسه بل إنها تهدم كيانه كله، فمعنى عدم حصول الشباب على عمل هو حرمانه من مقومات الحياة الآمنة المستقرة فلا أمل له في الزواج وتكوين أسرة ويعني ذلك إضافة مزيد من الأعباء على كاهل أسره.

ويمثل إنخفاض مستوى الأجور لدى بعض العائلات أزمة حقيقية في حياة أبنائها الشباب البطال، حيث ينعكس ذلك عليهم بصورة حادة وقاسية في صورة الشعور باللآمساواة والظلم الإجتماعي، مما يؤدي ذلك عند بعض الشباب البطال إلى تكوين ميول هروبية من تلك الأوضاع التي لا يستطيع مسايرتها، إذ تأخذ تلك الميول الهروبية أشكالا متعددة منها الإتجاه إلى التقوقع والإنغلاق والعزلة، أو الإتجاه نحو اللآمبالاة والشعور بالإغتراب والبحث بالتالي عن مجتمعات أخرى قد تحقق له بعض الحاجات التي عجز مجتمعه الأصلي أن يوفرها له أهمها الحاجة إلى العمل وتحقيق الذات، ويكون ذلك في صور متعددة منها: الهروب من الأسرة واللجوء إلى الهجرة لمجتمع آخر بشكل شرعي أو لا.[22]

في ضوء ما تقدم نتفق على أن الشباب في حاجة ماسة إلى إشباع تلك الحاجة الملحة المنحصرة في العمل، وأن عدم إشباعه لها يخلق عنده حالة توتر وإختلال في التوازن وصراعا داخليا لشعوره بالفشل في عدم قدرته على تحقيق حاجاته في أداء دور وظيفي بالعمل وإثبات الذات، وتكون تلك الحالة متعلقة بهدف معين حيث يرغب الشباب البطال في عمل شيء لبلوغ هدفه وإزالة هذا التوتر وإستعادة التوازن[23].

ومعنى ذلك أن الحاجة إلى العمل تمثل لدى الشباب دافع لسلوكه سلوكا منحرفا قد يؤثر عليه كفرد وكعضو في المجتمع، وهي أيضا القوة الدافعة لبذل الجهد والنشاط لإشباعها وإرضائها بشتى الطرق حتى وإن كانت غير شرعية ولا تتفق وطبيعة وفلسفة ومعايير النسق الإجتماعي العام، هذا وتعد الهجرة غير الشرعية – وبالتعبير المتداول الحرقة– من بين تلك السبل التي أصبح يسلكها الشباب البطال اليوم لتجسيد طموحه في الحصول على عمل يضمن له أدنى حد من العيش الكريم، وهي تعد جانب سلبي خطير لمشكلة البطالة التي تقتضي منا الوعي جيدا بمدى خطورتها حيث إنتشرت بقوة بين الشباب البطال في الآونة الأخيرة.

ويجدر بنا التوقف ضمن هذا السياق عند **مفهوم الهجرة غير الشرعية**، ومنه تتعدد دلالات الهجرة بين هجرة سرية، هجرة غير شرعية، هجرة غير قانونية، هجرة غير نظامية، وتعني الهجرة غير الشرعية "إنتقال فرد أو جماعة من مكان إلى آخر بطرق سرية مخالفة لقانون الهجرة كما هو متعارف عليه دوليا"، أما المصطلح المتداول هو "**الحرقة**" « **EL HARGA** » ومعناه "حرق كل الأوراق والروابط التي تربط الفرد بجذوره وبهويته على أمل أن يجد هوية جديدة في بلدان الإستقبال"، و"**الحراقة**" « **LES HARRÃGAS**» و"**الحراق**"

« **HARRÃG** » هم الأفراد والفرد الذي يعزم على حرق أوراقه – بطاقة هويته- لقطع كل صلة تربطه ببلده الأم.

وتعني الهجرة في أبسط معانيها: "حركة الإنتقال – فرديا كان أو جماعيا- من موقع إلى آخر بحثا عن وضع أفضل إجتماعيا كان أم إقتصاديا أم دينيا أم سياسيا".[24]

وقد جاء في تعريف الهجرة غير الشرعية: "أنها هي شكل من أشكال الهجرة وتتم غالبا في شكل جماعي، حيث يقوم المهاجر بتجاوز حدود دولة غير دولته بطرق غير قانونية إما للعمل أو العيش في ظروف أفضل من الظروف التي كان يعيش فيها في بلده الأصلي".[25]

وعلى هذا الأساس، فإذا كان الفرد العامل يرى أن إنخفاض الدخل مبرر كاف للهجرة بغرض رفع مداخيله فإن العاطل عن العمل يرى أن مبرره أكثر من كافي، لذا تعتبر البطالة- بما لها من مستتبعات سلبية- أحد الأسباب الرئيسية للهجرة إلى الخارج طلبا للعمل وتزداد حدة البطالة في دول العالم الثالث[26]، وهي تمس بالدرجة الأولى الفئة الشابة من جميع المستويات العلمية والمهنية، فعدم قدرة سوق العمل الوطنية على تأمين الطلب المتزايد على العمل يجعل أن هؤلاء الشباب يتجهون إلى طلبه في الخارج ولو في ظروف عمل صعبة عن طريق الهجرة غير الشرعية.[27]

وقد إكتست هذه الظاهرة أهمية بالغة في منطقة المغرب العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط، ونتوقف هنا عند حالة المجتمع الجزائري –كنموذج- الذي شهد بدوره في السنوات الأخيرة ظاهرة إستفحال الهجرة غير الشرعية بين أوساط الشباب بشكل متزايد، إن أحد المعطيات السوسيولوجية الدالة التي تميز المجتمع الجزائري المعاصر هو أنه مجتمع شاب في أغلبية سكانه حيث يشكل الشباب 70% من المجتمع الجزائري، مما يعني أن حل مشاكل الجزائريين يعتمد أساسا على حل مشاكل هذه الفئة من المجتمع وعلى رأسها ظاهرة "الحرقة"، التي إنتشرت بين أوساط الشباب الجزائري الذي أصبح يركب قوارب الموت ويخوض مغامرات إنتحارية للهجرة إلى ما وراء البحر، وفي السياق ذاته قال الشيخ "بوعمران" رئيس المجلس الإسلامي الأعلى: "لسنا مرتاحين لوضعية الشباب.....أبناؤنا يموتون في البحر أو يلقى عليهم القبض في إسبانيا وإيطاليا ويزج بهم في السجن، لتضطر الدولة الجزائرية إلى التدخل بطرقها الدبلوماسية من أجل إسترجاعهم".[28]

مما سبق نجد أن هناك ما يدعو إلى القلق والتساؤل والإستفسار حول قوى الدفع والجذب التي تدفع بالشباب "الحراق" –كطاقة بشرية حيوية- إلى الإنفصال عن بلده الأم عن طريق "الحرقة" والقوى التي تجذبه إلى أوروبا، وقد طرحت في ذلك مجموعة من التأويلات المتعلقة بأسباب الهجرة غير الشرعية لشبابنا، والتي تتفق في معظمها في إعتبار الهجرة غير الشرعية على أنها تمثل أحد إفرازات تلك الظروف الإقتصادية والإجتماعية الصعبة والمزرية التي يعيشها الشباب "الحراق" في مجتمعه، وعلى وجود علاقة ترابطية قوية بين معضلة البطالة والهجرة غير الشرعية في كون أن الشباب "الحراق" هو في معظمه شباب بطال قد ظل محاصرا بمشكل البطالة وعواقبها الوخيمة

في ظل مجتمعه، حيث دفعت به بطالته تلك إلى إتخاذ من الهجرة غير الشرعية السبيل الأنجع للحصول على عمل والتحرر من براثن البطالة.

غير أن ما يغيب عن الذهن هو أنه لتفهم أسباب هذه الظاهرة يتحتم الرجوع أساسا إلى الشخصية الشبابية ذاتها التي تتميز بمجموعة من خصائص إجتماعية، عقلية، نفسية التي لا بد أن تراعى، فهي تختلف في طبيعتها عن الشرائح العمرية الأخرى في المجتمع، ويكمن أهمها في كون مرحلة الشباب تمثل فترة محاولة وخطأ يحاول فيها الشباب البحث عن ذاته لإكتشافها وتحديد دوره ضمن النسق الإجتماعي العام للقيام به، فهي بذلك مرحلة التعبير عن الذات والإستقلال والإعتماد على الذات، وبهذا نجد أن الشباب يواجه مشكلة الإهتمام المفرط بقضية بناء مستقبله طالما أن تحقيق ذاته يتم في إطاره وبوسيلة العمل.

فقد أصبح تحدي الهجرة غير الشرعية يسيطر على عقول الكثير من الشباب البطال في المجتمع الجزائري، ومن هذا المنظور فإن "الحرقة" تعبر في صميمها عن قوة الإرادة التي يملكها الشباب "الحراق" في سعيه الملح إلى تغيير واقعه المعيش المر، والتحرر من بطالته الخانقة بحصوله على عمل وتحقيقه لذاته حتى ولو كان ذلك يكلفه حياته، فضلا عن أن هذه الإرادة القوية التي يتحلى بها الشباب البطال هي قوته الدافعة إلى السير في طريق "الحرقة" مهما تكلفه من المشاق والخسائر، وهي إرادة بأقوى مظاهرها التي لا تحجم أمام العقبات التي تعترضها، فلا شيء أصعب عندها من عدولها عن هدفها في الإبحار على متن قوارب الموت عرض البحر نحو الضفة الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو ما يفسر أن الشباب الجزائري "الحراق" يتمتع بروح المغامرة وأنه إذا كانت إرادته قوية في تغيير واقعه المعيش عن طريق تحقيق طموحه في العمل الذي يسلك إليه كل سبيل ولا يثني إرادته في ذلك شيء، فإن إرادته تلك هي في حقيقة الأمر مريضة ويكمن مرضها في إتجاهها ونعني من ذلك سوء وجهة إرادته رغم قوتها الخارقة في تحقيق هدفها، حيث وجهت ضد نفسه وليس لصالحها وخيرها وإنما لإلحاق الأذى بالذات، ذلك أن الإرادة في "الحرقة" هي تحمل في جوهرها معنى الإرادة في الإنتحار.

بيد أن ما يجهله الشباب "الحراق" المقدم على مغامرات "الحرقة" الذي ينجح في وصوله بأمان إلى " الفردوس الأوروبي" هو ذلك الوجه الآخر القبيح للهجرة غير الشرعية، إذ سرعان ما يصطدم حلمه الوردي بصعوبات الحياة الواقعية في المجتمعات التي يهاجر إليها، فإقامته غير الشرعية تجعله يعيش في إضطراب وتوتر وهرب دائم وتواري على وجه السلطات والتعرض لمطاردة الشرطة طوال الوقت، وقبول الإستعباد وإهانة وإبتزاز أصحاب العمل والعمل في ظروف مهينة وقاسية[29]، قساوة وبرودة المناخ السائد بهذه البلدان الأوروبية التي تفتقر في واقع الأمر لحرارة ودفئ وحنان ومشاعر الإنسانية والرحمة والأخوة والتكافل الإجتماعي التي تنبع من بلده الأم "الجزائر"، وفي النهاية يكون مصيره السجن أو الترحيل إلى موطنه الأصلي حيث تترك فيه تلك التجربة القاسية التي خاضها آثارا نفسية بالغة لن تمحى بسهولة من ذاكرته، ويكتشف في الأخير أن أحلامه كانت مجرد سراب والهجرة غير الشرعية لم تكن هي الحل بل كانت المشكلة في حد ذاتها التي زادت من تفاقم الوضع سوءا لكونها تمثل واقعا أليما ومأساويا.

هو إذن شبابا بطالا "حراقا" مغامرا حالما يحلم بسراب الحياة المثالية الكاذبة رسمها بنفسه في مخيلته بعيدة عن تعقيدات الواقع ومشاكله، والتي لا وجود لها أصلا في أرض الواقع لتلك الدول الأوروبية مقصد الشباب في رحلاته السرية، لكن ماذا لو يوظف الشباب الجزائري "الحراق" إرادته الخارقة تلك في بلده الأم، وبالتالي العمل على تحويل وجهتها فيما يعود عليه بالخير والمنفعة في كنفه، وذلك عن طريق التذرع بالصبر وضبط النفس والتحلي بالشجاعة في تحمل مصاعب ومشقة الحياة المعاشة ومقاومة قساوتها، والإيمان بأنه بعد كل عسر إلا ويأتي اليسر وأن الأزمة تلد الهمة في نفوس الرجال، فكم من أعلام ورجال عظماء ولدوا من رحم الأزمة والظروف الإجتماعية والإقتصادية القاسية والمتأزمة، حيث إستطاعوا —وهم في ريعان شبابهم– أن يكونوا ويحققوا ذاتهم بإرادتهم القوية في موطنهم الأصلي "الجزائر"، وتسجيل وجودهم عبر التاريخ بأحرف من ذهب والذي على شبابنا الإقتداء بهم.

إن ما نود التأكيد عليه –في ذات السياق– هو أنه يجب أن تتوفر لدى شبابنا قناعة ثابتة بأن رفع التحديات المطروحة عليه وتجاوزه للمعوقات التي تقف حائلا وحجر عثرة أمام نهوضه وبنائه لمستقبله لا يتم بالهروب من بلده الأم عن طريق الهجرة السرية غير القانونية كحل حتمي لا بد منه، وإنما لا بد له من المواجهة والصمود وأن يكون أكثر واقعية بالتعامل مع الواقع كما هو ولا كما ينبغي أن يكون في مخيلته، فعليه الإقتناع بأهمية دوره في المجتمع الذي هو عضو فيه والثقة أكثر بنفسه بأنه يمكن له أن يكون في موطنه الأصلي بالإرادة القوية التي يختزنها، ويتحرر بذلك من تلك الهواجس التي أضحت بمثابة عقد تمس أكثر فئة الشباب البطال وهي: "أكون أو لا أكون" و"كيف يمكن أن أكون بدون العمل".

بقي علينا أن نذكر أن المسؤولية الأكبر تقع على السلطات الرسمية في رعايتها للشباب وحل المشكلات التي تؤثر فيه، والإستثمار الرشيد لهذه الطاقة الشابة المنتجة وتفادي هدرها لهذه الثروة البشرية الهائلة، وذلك عن طريق مواجهتها لمشكلة البطالة التي يعاني منها بحدة الشباب بإعتبارها أحد أهم التحديات —الحاضرة والمستقبلية– التي تواجه الإقتصاد الوطني، وما تحمله من مخاطر على الشباب نظرا لما تخلفه من عواقب وظواهر سلبية تمثل ظاهرة الهجرة غير الشرعية أبرزها، على أن الحد من إنتشار هذه الظاهرة مرهون أساسا بمكافحة المشكلة الأصلية النابعة منها وهي البطالة التي تمثل جذورها.

في الأخير، يتعين على السلطات المعنية السعي إلى إيجاد الحلول الملموسة الكفيلة بالتقليص من بطالة الشباب، كأن تعمل – في تقديرنا– على إعداد إستراتيجيات تنموية تكون أكثر فاعلية ومردودية، قائمة أساسا على بلورة مشاريع وإنجازات إستثمارية إنتاجية تمس بمجالات جديدة للعمل بقطاعات أخرى نذكر منها –على سبيل المثال لا الحصر– السياحة، الزراعة، الصناعة...وغيرها، وتقديم من جانب آخر للشباب البطال إعانات مادية معتبرة وتسهيلات إدارية تحفيزية تخلو من تلك الممارسات البيروقراطية المعرقلة، على نحو يتم تشجيعه وتفعيله ليصبح أكثر إستعدادا وقدرة على خلق مشاريعه الإستثمارية الخاصة بنفسه، بحيث يتحقق الوعي التنموي في صفوف شبابنا الجزائري بالشكل الذي قد يبدع فيه بتوسيع نشاطه مما يؤدي به بالتالي إلى خلق مناصب عمل جديدة.

المراجع والهوامش:

(**1**) Active, Paris, 1977, in vie et Education O.C.D.E:

نقلا عن عبد السلام الداشمي، مصطفى حدية: الشباب ومشكلات الإندماج، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية، 1995، ص.27.

(**2**) UNESCO : Planification de l'Education, Bilan, Problèmes et Perspectives, UNESCO, Paris, 1970.in نقلا عن نفس المرجع، ص.27.

(**3**) MINARCK etienne : Les 50 Mots Clés de la Psychologie, in نقلا عن نفس المرجع، ص.10.

(**4**) مصطفى حجازي: الشباب الخليجي والمستقبل "دراسة تحليلية نفسية إجتماعية"، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص.ص.17،16.

(**5**) حمدي الكنيسي: "ثقافة الشباب"، نقلا عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الثقافة والقوى البشرية، تونس،1995، ص.81.

(**6**) مرجان محمد مجدي: "الشباب قدوة"، صحيفة الأهرام، القاهرة، 1997.09.10، نقلا عن مصطفى عبد القادر: الشباب بين الطموح الإنتاجي والسلوك الإستهلاكي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص.ص.18،17.

(**7**) نمر حلمي: " قضية الشباب "، صحيفة الأهرام، القاهرة، 1999.11.14، ص.10، نقلا عن نفس المرجع، ص.21.

(**8**) علي ليلة: الشباب في مجتمع متغير تأملات في ظواهر الأحياء والعنف، دار المعارف، ط2، مصر، 1992، ص.36، نقلا عن علي ليلة: الثقافة العربية والشباب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003، ص.14.

(9) MINARCK etienne : Op.Cit, P.10.

(10) أحمد محمد موسى: الشباب بين التهميش والتشخيص "رؤية إنسانية"، المكتبة المصرية للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2009، ص.ص.25،26.

(11) عبادي إبراهيم متولي: المسؤولية الإجتماعية وعلاقتها بالقيم لدى شباب الجامعة، بحوث المؤتمر السادس لعلم النفس في مصر، ج2، 1990، نقلا عن عبد السلام الداشمي، مصطفى حدية: مرجع مذكور سابقا، ص.ص.16،17.

(12) أحمد محمد موسى: مرجع مذكور سابقا، ص.40.

(13) Dictionnaire de Lexique Politique:"Qu'est ce que Chômage?" in site : www.toupie.org

(14) عبد العزيز مهنا: البطالة العمالة الكاملة، المكتبة الأنجلو مصرية، بدون سنة، ص.3.

(15) حافظ كمال محمد: "دور الشباب وواجباته في التنمية"، مجلة العالم الإسلامي، 2001، ص.5، نقلا عن مصطفى عبد القادر: مرجع مذكور سابقا، ص.24.

(16) محمد محمد علي: الشباب العربي والتغير الإجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص.44، نقلا عن نفس المرجع، ص.26.

(17) عبد الرحمن محمد العيسوي: جنوح الشباب المعاصر ومشكلاته، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، بيروت، 2004، ص.408.

(18) G.Graba : « La Politique Sociale dans une Situation de Transition », Revue Algérienne du Travail, N°25, 2000, P.42, in

نقلا عن ناصر دادي عدون، عبد الرحمن العايب: البطالة وإشكالية التشغيل ضمن برامج التعديل الهيكلي للإقتصاد من خلال حالة الجزائر، د.م.ج. 2010، ص.ص.4،3.

(**19**) P.94, in York, 1980, New Social Problems, IAN robertson:

نقلا عن السيد غنيم رشاد، جمال مجاهد: قضايا سوسيولوجية معاصرة، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 2008، ص.64.

(**20**) المنظمة العربية للدفاع الإجتماعي: الجرائم الناجمة عن النمو الإقتصادي، الرباط، العدد الخامس، 1982، ص.28، نقلا عن نفس المرجع، ص.54.

(**21**) SHIRLEY cereseto: Critical Dimensions in Development Theory, A test of four in Equality Models, in نقلا عن نفس المرجع، ص.ص.54،55.

(**22**) يوسف أبو الحجاج: شباب القرن 21 " كيف نتعامل معهم؟ " دار الكتاب العربي، دمشق، 2009، ص.ص. 141-143.

(**23**) عبد المنعم محمد حسين: تساؤلات الشباب الحائرة كمدخل لبناء المنهج الدراسي المناسب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986، ص.19.

(**24**) عبد اللطيف محمود: الهجرة وتهديد الأمن القومي العربي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2003، ص.14، نقلا عن سني محمد أمين: "دراسة حول الهجرة غير الشرعية وأسبابها في منطقة المغرب العربي"، جامعة الجزائر، 2010، ص.3، نقلا عن الموقع الإلكتروني: snimdamine.maktoobblog.com

(**25**) يوسف أبوراص: "الهجرة غير الشرعية رحلة الموت والذل"، 2009، ص.1، نقلا عن الموقع الإلكتروني: www. knol.google.com

(**26**) الجمعية العامة للأمم المتحدة: "تقرير عام 2007 عن الحالة الإجتماعية في العالم حتمية العمالة"، ص.4، نقلا عن سني محمد أمين: مرجع مذكور سابقا، ص.3.

(**27**) غالية بن زيوش: "الهجرة والتعاون الأورو–متوسطي منذ السبعينيات"، رسالة الماجستير، جامعة الجزائر، 2005، ص.39، نقلا عن نفس المرجع، ص.5.

(**28**) ليلى شرفاوي:"الحراقة، الإرهاب، البطالة وأزمة السكن في خطاب بوتفليقة "، جريدة الشروق، 2008، نقلا عن الموقع الإلكتروني: www.echoroukonline.com

يوسف أبوراص: مرجع مذكور سابقا، ص.3.